

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٤٣٣ : التوبة .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٣-٠٣-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله ثم الحمد لله ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وما توفيقي ولا اعتصامي ولا توكلي إلا على الله . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جحد به وكفر . وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، رسول الله سيد الخلق والبشر ، ما اتصلت عينٌ بنظرٍ أو سمعت أذنٌ بخبر . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين . اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

باب التوبة مفتوح على مصاريعه :

أيها الأخوة الأكارم ؛ الإنسان أحياناً يشرد عن الله ، تزل قدمه ، ويقصر ويتجاوز حدوده ، فيسأل ما العمل؟ لا يوجد جواب أبلغ من أن تتوب إلى الله ، لأن الله سبحانه وتعالى فتح باب التوبة على مصاريعه ، بل إنه يجب أن تتوب إليه لقوله تعالى:

﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾

[سورة البقرة : ٢٢٢]

بل إن الله يريد أن يتوب عليك لقوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾

[سورة النساء : ٢٧]

وقد أنبأنا من خلال قول النبي عليه الصلاة والسلام أن هناك مناسبات عديدة كي يغفر لك ما سبق ، جملة وتفصيلاً ، من هنا يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ وُلِدَتْهُ أُمُّهُ))

[متفق عليه أبي هريرة رضي الله عنه]

إنسان عليه دين عشرة ملايين ، وأملاكه كلها محجوزة المنقولة وغير المنقولة ، قيل له : اذهب للمكان الفلاني وافعل كذا وكذا تسقط عنك كل هذه الذمم ، هل يتردد لحظة ؟

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ وُلِدَتْهُ أُمُّهُ))

[متفق عليه أبي هريرة رضي الله عنه]

و:

((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

((من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

و:

((أما علمت أنّ الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأنّ الهجرة تهدم ما كان قبلها؟...))

[مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه]

من أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله :

إنسان مقيم في بلد يعصى الله فيه على قارعة الطريق ، والآن هناك شدة ، كان هؤلاء الذين أقاموا مع المشركين في بحبوحة كبيرة ، وفي اعتزاز ، أحدهم إذا ملك جواز سفر لهذه الدولة التي تطغى على العالم كله يمشي بالعرض معه جواز ، أو معه كرت أخضر ، الآن ساق الله لهم من الشدة ما أسقط قيمة هذا الجواز ، ملامحه شرق أوسطية حققوا معه ، معه جواز لا يهم حققوا معه ، سقطت قيمة الجواز والكرت الأخضر ولم يبق إلا تهمة واحدة لماذا أنت مسلم ؟ ولعل هذه الشدة من رحمة الله تعالى لهذه الجالية التي آثرت أن تقيم مع هؤلاء المشركين على أن تقدم خدمات لأمتها ووطنها ، على كلّ الهجرة الآن تصبح بين مدينتين كمكة والمدينة ، بلد لا يوجد شيء فيه اسمه حرام ، كنت في مؤتمر بأميركا قام أحد المحاضرين وقال: ليس في هذا البلد شيء مقدس كل شيء خاضع للبحث والدرس والرفض ، بينما في حياة المسلم هناك أشياء مقدسة ، دينه مقدس ، نبيه ، قرآنه ، منهج الله مقدس ، أعلام الأمة من أهل الحق مقدسون عندهم. لذلك أيها الأخوة ؛ ورد في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أقام مع المشركين برئت منه ذمة الله " ، وأعلم والله علم اليقين أن عدداً ليس بقليل من الأطباء لهم هناك دخل فلكي يقدر بمليونين ، أو ثلاثة ملايين ، أو خمسة ملايين ، أو عشرة بالشهر ، تركوا وعادوا لبلدهم ليعالجوا المسلمين ، هؤلاء أبطال عند الله ، والله أعرفهم تركوا هذه البلاد قبل الحادي عشر من أيلول ، قبل أن تنشأ هذه الأزمة ، وهم في أعلى درجة من الرخاء ، لكن شعروا بعذاب نفسي أنهم يعالجون أعداء الأمة ، فأرادوا أن يعالجوا هذه الأمة ، جاؤوا لهذا البلد واشتروا عيادات متواضعة ، ودخلهم كان متواضعاً ، طبعاً يوجد تعقيدات معروفة ومع ذلك أرادوا وجه الله ووجه الدار الآخرة.

باب رحمة الله مفتوح مدى الأيام :

لذلك المناسبة الأولى:

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ وُلِدَتْهُ أُمُّهُ))

[متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

المناسبة الثانية:

((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

المناسبة الثالثة:

((من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

المناسبة الرابعة:

((أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟...))

[مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه]

إنسان ترك بلد مصالحه فيها محقة مئة في المئة وجاء لبلد ليكون جندياً للحق ، هذا يعفو الله عنه عما مضى

المناسبة الخامسة:

((من تاب إلى الله تعالى توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه وبقاع الأرض كلها خطايا وذنوبه))

[أبو العباس بن ترکان الهمداني في كتاب التائبين عن أبي الجون]

والتوبة مقدور عليها ، لمجرد أن تقول : يا رب لقد تبت إليك ، يقول الله لك : وأنا يا عبدي قد قبلت ، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية : " إني والجن والإنس في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ، خيرني إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، فإن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم ، أتبليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعائب ، الحسنه عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرفأ بعبدي من الأم بولدها".

فأسوق هذه الأحاديث في مناسبة انقضاء رمضان ، لأن باب رحمة الله مفتوح على مدى الأيام.

الدين الإسلامي دين يسر لا عسر :

لذلك أنا أتخفظ حينما يقال لبعض التائبين : لا بد من أن تصلي ثلاثين سنة ماضية ، ماذا نفعل بهذه الآيات والأحاديث ؟ ينبغي أن تصلي كل فرض فاتك من ثلاثين سنة سابقة ، كأننا نكرهه بالتوبة ، ونحمله على ألا يتوب ، ونحمله فوق طاقته.

أنا أقول والله متأكد من كلامي أن الإنسان إذا تاب توبة نصوحة سقط عنه كل شيء ماض ، لا تحمل نفسك ما لا تطيق ، لا تكن متعنناً في الدين ، هذا الدين دين يسر ، القضية خلافية هناك من يتشدد ويقول: لا بد من أن تصلي صلاة عن كل سنة فاتتك ، وهناك من يقول كالإمام الشافعي رحمه الله تعالى : " إن النوافل والسنن تحول عند الله إلى فرائض " ، وهناك من يقول : " لمجرد أن تتوب لا شيء عليك " ، هذه قضية فيها اختلاف ، بعضهم قال: " اختلاف أمي رحمة " ، فإذا كان الإنسان ذا همة ضعيفة لا تحمله فوق طاقته ، لا تقل له : ينبغي أن تصلي عن ثلاثين سنة .

هناك طرفة أن إنساناً التقى بشيخ قال له : لا أصلي لأن صلاة الفجر لا أستطيعها ، قال : دعك من هذه الصلاة ، صل أربعة فروض ، أفتى له بأربعة ، فيوجد علماء تقليديون سمعوا بهذه الفتوى فأقاموا النكير ، فالتقى بهم قال : أفنعه بأربعة أنتم أفنعه بالخمسة ، فالإسلام اليوم ضعيف يحتاج للباقة ونعومة ولطف وتسهيل للتائبين .

أخ من أخواننا لزم الدروس فترة طويلة ثم انقطع فجأة ، سألت عنه قال : له عمل لا يتناسب مع ما تدعو إليه ، وجد نفسه في تناقض كبير فترك الدروس ، ماذا يعمل؟ عنده محل بأحد أحياء دمشق الراقية يبيع مذهبات ، فضيات ، كؤوس غالية جداً ، كريستال ، هذه كلها محرمة فذهبت إليه وقلت له : تظن أنني سأطلب منك أن تتلف هذه الحاجات كلها ؟ رأسمالك الوحيد أفتي لك أن تبيعها وتغير مصلحتك ، كاد يخلت توازنه من فرحه .

رأسمالك في هذه البضاعة هل من المعقول أن أطلب منك أن تكسرها وتضعها في القمامة ؟ الله لم يكلفك فوق طاقتك ، بع البضاعة واسترد رأسمالك وغير مصلحتك .

عدم تحريم ما أحل الله :

الحقيقة كل إنسان يستطيع أن يفتي بالرفض لأن هذا سهلاً ، إذا إنسان كلما سألك أمراً تخبره : هذا حرام ، لا تكلفه شيئاً ، شك فيها ليس متأكداً فحرمها .

أخ من أخواننا بحالة فقر لا توصف ، يعمل في الموزاييك ، فجاءه عرض خمسمئة بيت مصحف موزاييك يحل مشاكله لخمس سنوات قادمة قال : لأن الذي عرض عليه العرض غير مسلم فرفض العرض ، توهم أنه حرام ، النبي تعامل مع أهل الكتاب من قال لك إنه حرام ؟ ! وبيت مصحف ماذا تفعل أنت ؟ يوجد جهل شديد ، كل إنسان يفتي بالرفض لأنه لا يكلف شيئاً ، لست متأكداً تقول : حرام ، لا ! كلما كنت جباناً بالفتوى تكون كبيراً عند الله عز وجل ، اطلب منه يومين لتراجع المعلومات ، لا تخبره مباشرة ، هذا الذي يحرم ما أحل الله هذا الإنسان أذهب من يده فرصة وفاء ديونه ، وحل مشاكله ، ويتمتع بدخل وفير لخمس سنوات قادمة .

أيها الأخوة ؛ لذلك من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ جَابِرٍ قَالَ : خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِّنَّا حَجْرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيْمَمِ فَقَالُوا مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَّمَّمَ وَيَعَصَرَ أَوْ يَعْصِبَ شَكَّ مُوسَى عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ))

[أبو داود عن جابر]

هناك بعض حالات لك أن تتيمم دون أن تغتسل وأنت جنب ، تتيمم وتصلي ، لذلك قال بعض العلماء : العوام لأن يرتكبوا الكبائر أهون عند الله من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون .

أيها الأخوة ؛ أبواب التوبة مفتوحة على مصاريعها ، والهجرة تهدم ما كان قبلها ، والصيام يهدم ما كان قبله، ومن حجّ فلم يفسق ولم يرفث رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

أيها الأخوة ؛ نحن بعد رمضان نعود كما كنا قبل رمضان ، قال : " عطني ولا تطل؟ فتلا عليه آية واحدة ، قال : كفيت ، قال : فقه الرجل " القضية تحتاج لتطبيق.

أقول لكم هذه المقولة : والله لو كل مسلم طبق واحد بالمليون مما يعلم لكان في أعلى عليين ! مما عنده من أشرطة ، ودروس ، وخطب ، ومحفوظات ، وآيات ، وأحاديث ، هذه مشكلتنا بالتطبيق ، لن تتألق ولن يرضى عنك الله إلا إذا طبقت وكنت صادقاً في طلبك.

مرة أحد الخطباء في المساجد اقترح اقتراحاً أن نصمت سنة نهائياً ، لأن الكلام لا يفيد ، وأن نعمل ، نحن بحاجة إلى عمل لا إلى قول ، لا يوجد فكرة لم أذكرها ، ولا يوجد شاهد لم آت به، ولا يوجد مثل ألهمني الله أن أبينه لكم إلا و بينته ، العبرة بالتطبيق ، انتهى ما عليّ وبقي ما عليكم ، دائماً الله عز وجل يسأل المتكلم والسامع ، يسأل المتكلم : هل كنت صادقاً فيما تقول ؟ وهل طبقت ما تقول ؟ وهل كنت مخلصاً فيما تقول ؟ يسأل السامع : هل طبقت الذي استمعت إليه ؟ فلا بد من التعاون إن شاء الله ، وأنا معكم دائماً إن شاء الله. أيها الأخوة الكرام ؛ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وصلوا ما بينكم وبين ربكم تسعدوا ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيخطى غيرنا إلينا ، فلنتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

* * *

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شرّ ما قضيت ، فإنك تقضي بالحق ولا يُقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، ولك الحمد على ما قضيت ، نستغفرك ونتوب إليك ، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك . اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا اللهم بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا ، مولانا رب العالمين . اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، ودينانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا ، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، مولانا رب العالمين . اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عن سواك . اللهم لا تؤمنا مكره ، ولا تهتك عنا سترك ، ولا تنسنا ذكرك يا رب العالمين . اللهم استر

عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، وآمنا في أوطاننا ، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخياً وسائر بلاد المسلمين . اللهم
إنا نعوذ بك من الخوف إلا منك ، ومن الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، نعوذ بك من عضال الداء ،
ومن شماتة الأعداء ، ومن السلب بعد العطاء . اللهم ما رزقتنا مما نحب فاجعله عوناً لنا فيما تحب ، وما
زويت عنا ما نحب فاجعله فراغاً لنا فيما تحب . اللهم صن وجوهنا باليسار ، ولا تبذلها بالإقتار ، فنسأل شرَّ
خلقك ، ونبتلى بحمد من أعطى ، وذم من منع ، وأنت من فوقهم ولي العطاء ، وبيدك وحدك خزائن الأرض
والسما . اللهم كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك يا رب العالمين . اللهم بفضلك
وبرحمتك أعل كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين، وخذ بيد ولاتهم إلى ما تحب وترضى ،
إنك على ما تشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين